هرموبوليس مدينة الحج

للأستاذ فوزى الشتوى

انقراضها من مصر

فى أساطير قدماء المصريين أن مجاعة اجتاحت بلاد النوبة ففتكت بأهلها وزرعها ، إلى أن خف إليها الإلـه توت على شكل قرد أنقذها وأعاد إليها الأمن ورغد العيش . والإلـه توت من أقدم معبودات قدماء المصريين . وله رمزان يمثـله أحدهما على صورة طير أبي منجل . ويمثله الثانى صورة وجه القرد .

وقد تبين من حفريات جامعة فؤاد الأول برياسة الدكتور سامى جبرة فى منطقة تونة الجبل قرب ملوى أن أرض مصر فى عهد الفراعنة كانت تضم مجموعة كبيرة من الحيوانات التى انقرضت أو هاجرت إلى بقاع أخرى ومنها طير أبى منجل والقرد . والأول من فصيلة أبى قردان وله طباعه فى الفتك بالحشرات الضارة بالإنسان وزرعه .

رمزا له الإله

قال عنه هيرودوتس المؤرخ اليونانى إنه كان يسكن بين جبال سينا فيأكل الثعابين والحيات قبل دخولها أرض مصر . ويقول الدكتور سامى جبرة إن المصريين شهدوا اتزان مشيته ووقاره ، فأعجبوا بصفاته العالية ، واتخـذوه رمزاً لإلـه المعرفة ، ولئن كانت قوانيننا الحاليـة تحرم صيد أبى قردان ، وتفرض الغـرامة والسجن على مقتنصه فإن قوانين القدماء كانت تقضى بإعدام من يقتل أبا منجل .

(شكل ١)
طائر أبو منجل وأمامه تمثال الآلهة معات إله العدل

والقرد من الحيوانات النادرة التى تهلل جماعاتها إذا أشرقت الشمس وتنوح وتندب إن آذنت بالغروب . والمصريون القدماء معروفون بدقة الملاحظة . رأوا فى تهليله ونواحه علامة على معرفته لأسرار الشمس والعالم الآخر .

والإله توت إله المعرفة ، يعرف ما خفى وما استتر ، ويحق الحق ويزهق الباطل . وهل لإلـه المعرفة من رمز أشهى من الاتزان كما تمثـل فى أبى منجل ؟ وهل من إدراك بالغيب وسر إقبال الشمس واختفائها أعمق من إدراك القرد ؟ رأى المصريون فى الحيوانين صفات شديدة الصلة بالإله توت فاتخذوهما له رمزين حيين ، ورفعوهما إلى مراكز التقديس .

وزال أبو منجل من مصر ، ولـكنه لا يزال يقطن السودان وشواطىء إيطاليا الجنوبية ، كما يعيش القرد فى عدة أماكن منها السودان . وعرف رمز الإله فى عهد الفراعنة باسم توت ، فلما أقبل اليونان والرومان رأوا فيهما تشابهاً مع إله المعرفة عندهم فسموه هرمس .

وأطلقوا على بلدة أشمون الغربية اسم هرموبوليس . وتوت فيها مقابر من السراديب الصخرية قال عنها هيرودوتس إن مساحتها ٤٠ فدانا ضمت جثث آلاف القردة وأبى منجل .

ولعل القارىء سمع عن بلدة الأشمونين أو بلدى أشمون . والغربية منهما تكون من قبور الإله توت ومعابده ومكان الحجاج والشرقية هى مركز الحياة المدنية والإدارية . وقد كشفت حفريات الدكتور سامى جبرة عن المدينة المقدسة فأعطانا معلومات هامة عن فترة من أشد فترات التاريخ المصرى القديم غموضاً وهى ما يسميه الدكتور بعصر الانتقال . إذ يربط بين المدنية المصرية وبين المدنية اليونانية الرومانية . وهناك قطع أثرية جمعت بين الفنين . وقد امتدت إلى ما قبل العصر المسيحى بقليل .

مجهول ينكشف

ويقول الدكتور إن أبحاث الجامعة هناك تشمل فترة تبدأ من القرن السادس قبل الميلاد . وتمتد إلى القرن الثالث بعد الميلاد ، أى أنها تضم تسعة قرون من الزمن . ولا تخلو آثارها من مفاجآت ، ففى أحد السراديب وجد ناووس للإله توت يخص الملك رمسيس الثانى من عهد الأسرة التاسعة عشرة .

ويرى مؤرخنا أن أهمية منطقة الأشمونين ترجع إلى موقعها الجغرافى والتاريخى . فهى فى مفترق الطرق بين مدينة طيبة قرب الأقصر وبين مدينة ممفيس فى الدلتا . وهى منطقة واسعة الثروة

يتسع فيها وادى النيل فيغطى رقعة واسعة من الأرض هى فى الواقع أوسع منها فى أى بقعة أخرى .

وتتفرع من هذه المنطقة أيضاً طرق قوافل تخترق البقاع إلى السودان وإلى البحر الأحمر . كما يخترقها نهر النيل وبحر يوسف فتجود أرضها بالوفير من الغلات والحاصلات .

وقد بدأت الحفريات فى سنة ١٩٠١ فى ظروف قاسية فلم يكن بالمنطقة ماء ولا سكان ، بل كانت تلالا من الرمال يتراوح ارتفاعها بين ١٢ متراً و١٥ متراً فلم يكن هناك مفر من المبيت فى خيام أو أكواخ صغيرة ؛ فتحمل الجميع شظف العيش هناك . وعلى مر السنين أقيمت المبانى وتيسر الحصول على الماء والغذاء وأصبحت من أجمل البقاع .

مدينة الحجاج

ومدينة الحجاج تتكون من ثلاثة سراديب طويلة متفرعة اتخذت مدافن للإله توت . شيد إلى جوارها بناء كبير يتكون

(شكل ٢)
داخل السراديب وترى فتحات دفن الطيور والقردة

من عدة غرف لتنظيم دفن جثث الطيور أو القردة . فإن مات واحد منها نقله صاحبه إلى الكهنة ودفع قدراً من المال يقرر تبعاً له مدى إتقان التحنيط ومكان الدفن . فإن كان كبيراً حنط رمز الإله تحنيط الدرجة الأولى ودفن فى فتحات خاصة حفرت فى الصخر على جانبى السراديب . فعرف مكانه وتيسر له زيارته كل عام فى عيد الإله توت فى أول الشهر المعروف باسمه فى التقويم القبطى ، ويوافق ١٦ يوليو فى بدء الفيضان .

وإن كان صاحب الرمز فقيراً ودفع قدراً قليلا من المال حنطت الجثة من الدرجة الثالثة ، ووضعت فى إناء من الفخار ، ثم دفنت فى حجرات واسعة منتشرة على جانبى السراديب صفاً سفا . فإن اكتمل نظام صف وضعت فوقه طبقة من الرمال لتبدأ طبقة أخرى من الجثث إلى أن تملأ الحجرة فيبدأ الدفن فى غيرها

ودفن الأثرياء مع رموز آلهتهم تماثيل وتمائم تمثلهم لتحل على أشخاصهم بركة الآلهة . وكانوا يضعونها فى صناديق من خشب الجميز الذى أثبت أنه لا يبلى بمر السنين ، وأنه أقوى أنواع الخشب متانة واحتمالا بخلاف ما يقول المثل البلدى « تحن على الجميز » وكتب بعضهم على هذه الصناديق أدعية .

معدات تحنيط فاخرة

وقرب مدخل السراديب وجدت غرفة تحنيط كاملة المعدات وتبين جميع مراحله ، فى أحد أركانها إناء كبير يحتوى على مادة التحنيط نفسها ، ولكن تحليلها لم يكشف عن سر تركيبها ، فإن انتهت هذه العملية حمل الكهنة المومياء فى موكب دينى وهم يرتلون أدعيتهم ونزلوا السرداب بظهورهم إلى أن يضعوها فى مقرها الأخير

وأحد هذه السراديب خاص بالعظماء ، نقش سقفه بالألوان وزين بالرسوم ، وتغطيه الآن طبقة خفيفة من « الضباب » لا يعرف مصدرها وإن كان يظن أنها أثر حريق شب فى السراديب أو لأن المسيحيين كانوا يلجأون إليه هرباً من اضطهاد الرومان فيتصاعد دخان مسارجهم ويغطى السقف بلونه القاتم

واحتفظ معبد الأرواح المقدسة فى أحد السراديب بنقوشه وآثاره . شيده أحد البطالسة تقربا من المصريين وهو يمثل الإله توت على شكل قرد يستقبل أشعة الشمس . ويلاحظ أن جميع غزاة مصر حاولوا التقرب من المصريين وحكمهم عن طريق الاندماج فى ديانتهم ، فقد وجد ناووس قرد للملك داريوس الفارسى . وتحاط مدينة الحج بسور متدرج فى الارتفاع تكون كل ثمانية أعمدة درجة . والثمانية هو درج ، والثمانية هو رمز تلك المنطقة وتعبير عن عدد آلهتها الثمانية المعترف بهم فى ذلك الوقت . فلا تجد هناك شيئاً يتكون من ست أو سبع بل ثمانية ومضاعفتها وحتى مدخل السراديب أضيء بثمانى مسارج .

فوزى الشرى